مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:.08/ العـدد01 جوان (2024)، ص.ص415-423.

عامل الزّمن والخفّة في الأصوات العربية -دراسة تحليلية وصفية-

The time factor and lightness in Arabic sounds -Descriptive analytical study-

رزيـــق زيـان
zeyyanrezik@gmail.com
المركز الجامعي مغنية
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/10 تاريخ القبول: 2024/05/27 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص:

تعمل هذه الدراسة على الكشف عن أهمية عامل الزمن والخفّة في النطق بالأصوات العربية، ودورهما في الحفاظ على انسجام الأصوات العربية، وإثبات ميول هذه الأخيرة إلى الخفة والتسهيل في مقابل الثِقل والتعسير كما تحاول الدراسة البحث في تفاعل الأصوات العربية في التركيب، وإبراز بعض الظواهر المصاحبة لذلك وتحليلها وفق عامل الزّمن، وتحقيق الخفّة.

يعتبر احترام زمن كل صوت أثناء النطق به عاملا أساسيا في السلامة من التحريف الصّوتي، وعنصرا مهما في الحفاظ على أصالة المعاني، باعتبار أن الحفاظ على المسافة الزّمنية بين الأصوات يتعلق بالصوامت والصوائت وفي هذه الأخيرة يكون عامل الزّمن ظاهرا جليّا، كما أن نظام الأصوات العربية يقتضي الحفاظ على خفة اللفظ على اللسان باعتبار أن الأصوات تحدث تعاقبيا، مما يقتضي النظر إلى السابق واللاحق منها، هذا الأمر صاحبته ظواهر صوتية تعمل على تحقيق غاية الخفّة في النطق بالأصوات.

كلمات مفتاحية: الزمن، الخفّة، الأصوات، العربية.

Abstract:

This study works to reveal the importance of the factor of time and lightness in the pronunciation of Arabic sounds, and their role in maintaining the harmony of Arabic sounds, and proving the latter's tendencies to lightness and facilitation in exchange for heaviness and difficulty.

Respecting the time of each sound while pronouncing it is a key factor in safety from phonetic distortion, and an important element in maintaining the originality of meanings, considering that maintaining the time distance between sounds is related to silence and sounds, and in the latter the time factor is clearly apparent, and the Arabic sound system requires maintaining the lightness of the pronunciation on the tongue as the sounds occur sequentially, which requires looking at the previous and subsequent ones, this matter is accompanied by sound phenomena that work to achieve the very lightness in the pronunciation of sounds.

Keywords: *time, lightness, sounds, Arabic.*

مقدمة:

دراسة الأصوات اللغوية العربية تعتمد على أربعة جوانب؛ الجانب الأول متعلق بمخارج الأصوات وصفاتها باعتبار أن المخرج هو القادح للصّوت والمتمكّن من إيجاده، ثم دراسة ميزة كل صوت عن غيره، وهذا يتحقق بالصفات المكتسبة مع كل صوت، وبما أن الأصوات تكون في سلسلة تعاقبية تكوّن درج الكلام فإنها متعلقة بالزمن، إذ يعتبر هذا الأخير هو الفاصل بين كل صوت والذي يليه في التركيب، وباحترام المسافة الزمنية بين كل صوت وآخر يتحقق

المعنى وتُحفظ الأصوات من التشوّه أثناء تفاعلها مع الأصوات الأخرى، فلولا احترام مسافة الزمن في النطق بالصوت المهموس مثلا لأثّر فيه الصوت المجهور الذي يليه، وعلى هذا الأساس يعتبر احترام المسافة الزمنية اللازمة للنطق بكل صوت في التركيب الصوتي مهما حفاظا على سلاسة الألفاظ وأصالتها، وتحقيق المعنى وإبلاغه.

يعتمد فضاء الأصوات العربية على المكان (المخرج)، والسمة المميزة (الصفة)، والزمن اللازم لكل صوت في التركيب الصوتي، وهذا يجعل النظر في حالة هذه الأصوات في تفاعلها مع الأصوات الأخرى في هذا الفضاء الصوتي أمرا لازما، باعتبار أن هذا التفاعل بين الأصوات يجب أن يضبطه ضابط، ويتمثل هذا الضابط في تحقيق الخفّة، وتتمثل في خفة الأصوات على اللسان وسهولة النطق بها أثناء التسلسل التعاقبي للأصوات في درج الكلام، وذلك باعتبار التفاعل الحاصل بينها في السلسلة الصوتية، وعلى هذا الأساس تنتج ظواهر صوتية يتحقق بها مقصد الخفّة واليسر في مقابل الثِقل والعسر.

بناء على كل هذا تُطرح الإشكالية الآتية: ما أثر عاملي الزمن والخفّة في سلامة النطق وتحقيق المعنى؟، وعلى هذا الأساس تهدف هذه الدراسة إلى البحث في عامل الزمن والخفة في نطق الأصوات اللغوية العربية، والوقوف على الظواهر المصاحبة لذلك في سبيل تحقيق سهولة الألفاظ وتحقيق معانيها، يُعتمد المنهج الوصفي التحليلي في إنجاز هذه الدراسة.

1- عامل الزّمن في نُطق الأصوات اللغوية العربية:

دراسة عامل الزمن في نطق الأصوات اللغوية العربية من المباحث المهمة كونه يتعلق بالجانب النطقي من جهة وله تأثير في الدلالة الصوتية من جهة أخرى، كما أنه يحفظ المسافة الزمنية بين الأصوات أثناء النطق بها، وهذا يسلم النطق من التحريف الصّوتي ومن خلاله تشوّه المعاني، فالتّحكم في الزّمن عامل فعّال لتحقيق النُّطق الصحيح، يقول إبراهيم أنيس: "ولطول الصوت أهمية خاصة في النطق باللغة نطقا صحيحا"[1]، فالزّمن في الأصوات اللغوية يتمثل في المدّة التي يستغرقها الصوت لتشكُّله أثناء النطق[2]، أو الحيّز الزمني الذي يشغله الصوت أثناء عملية النطق به، وقد اهتم علماء اللغة بهذا الجانب، ولاسيما علماء القراءات القرآنية، وتجدر الإشارة إلى أن الزمن يتعلق بشقّين؛ فالشق الأول متعلق بزمن النطق بالصّوامت، وشق آخر متعلق بزمن النطق بالصّوائت، ولعلّ عامل الزمن يكون أطول مع الصوائت وهذا -كما قال ابن جنّي- راجع إلى "الحرص على صوت الصّائت وطوله ليلا يتأثر بمجاورة الأصوات الصامتة..."[3]، واستغراق الزمن في النطق بالأصوات اللغوية سواء بالطول أو القصر هو على ضربين؛ إمَّا أن يكون مكتسبا، وهذا يرجع إلى سياق ورود الصوت في التركيب الصوتي، أو طبيعيا وهو لازم مع الصوت أثناء النطق به في أي حال من الأحوال[4].

1.1- دراسة الزّمن مع النُّطق بالصّوائت:

تعتبر الصوائت أكثر الأصوات طولا أثناء النطق بها، وسميت الصوائت، وسميت الحركات، وسميت كذلك بأصوات اللين، يقول إبراهيم أنيس: "فأصوات اللين بطبيعتها أطول من الأصوات الساكنة"[5]، وتتمثل الصوائت في الفتحة القصيرة (ـَ)، والفتحة الطويلة (ـَا)، والضمة القصيرة (ـُ)، والضمة الطويلة (ـُو)، والكسرة القصيرة (ـِ)، والكسرة الطويلة (ـِي)، أو بتعبير أعم؛ الصوائت القصيرة، والصوائت الطويلة، وهذه الأخيرة مختلفة عن الصوائت القصيرة من حيث الكمية والمعنى نحو قولنا: (كَتَبَ وكَاتِب)، وهي تتفاوت في الزمن كذلك[6]، وأبرز من عالج قضية الزمن في الأصوات اللغوية علماء التجويد والقراءات القرآنية، وأطلقوا عليه **"المدّ"**، وأقّروا في ذلك أن المدّ لا يكون إلا في الصوائت، وقد تناول مكي بن أبي طالب قضية المد فقال: "لا يكون في شيء من الكلام إلا فيهن"[7]؛ أي في الصوائت، والمدّ في اصطلاح العلماء هو "إطالة **زمن جريان** الصوت بحرف من حروف اللين والمد"[8]، ويختلف زمن جريان الصوت بالصوائت، فهي في الألف أشدُّ مدّا من الواو والياء، وذلك لأنه صوت مدّ دائما، بينما الواو والياء إذا سكنتا خفّتا وإذا تحركتا ثقلتا[9]، فالألف لا تسبقها حركة لا تجانسها، فهي مسبوقة بالفتحة دائما، ولهذا فهي في حالة مدّ، بينما الواو والياء إذا أتت في غير محل مد وكانت أصلية فقد تُسبق بغير الحركة التي تجانسها، أو تُحرّك هي في ذاتها، فتكون ثقيلة، وكذلك الحال مع الواو، كمثال قولنا: وَقف، يُؤمر، تكون الواو والياء في هذه الحالة ثقيلة.

وقد فصّل علماء القراءات القرآنية والتجويد في المدود، حيث وسموا هذا المبحث في كتبهم بالمد والقصر، وأطالوا فيه الشرح والتفريع، وقدّروا له المقادير، ووضعوا له الكميّة، وحددوا المدّة الزمنية، فبيْنَ اثنين، أربع وستّ كان قولهم، في معنى القصر والتوسط والطول، وكان معيار ضبط المدّة الزمنية للنطق بالمد ما يسمى "مقياس الحركات"؛ ويقصد بالحركة الفترة الزمنية اللازمة للنطق بحرف متحرك؛ مفتوح، مضموم، أو مكسور، نحو: (طَ، طُ، طِ)، أما الحركتان فهي الفترة الزمنية اللازمة للنطق بحرفين متحركين نحو: (طَ، طَ)، (طُ، طُ)؛ وقس على ذلك[10]، و المد عندهم على ضربين؛ مدٌّ أصلي طبيعي، ومدٌّ فرعي.

1.1.1- المدّ الطبيعي: وهو المدّ الذي لا تقوم ذات حرف المدّ إلّا به، ولا يتوقف على سبب، وحدّه أن يستمر جريان الصوت فترة زمنية يفرق بينها وبين حرف المدّ والحركة، ومقدار مدّه عندهم: حركتان[11]، وللمدّ الطبيعي عند علماء القراءات توابع تتمثل في مدّ العوض، مدّ الصلة الصغرى، وألفات (حيّ طهر) وهي:[12]

- **مدّ العوض:** ويكون عند الوقف على التنوين المنصوب، نحو: أترابا ⟵ تقرأ عند الوقف عليها: أترابَا. وسميت بمدّ العوض لأنها جاءت عوضا عن التنوين في آخر الكلمة.

- **مدّ الصلة الصغرى:** وهي صلة هاء الضمير الغائب المفرد المذكر، موصولة بحرف مدّ لفظي يناسب حركتها، فإذا كانت مضمومة وصلت بواو، وإذا كانت مكسورة وصلت بياء، وشرطها أن تكون بين متحركين وصلا، ولا يتبعها همز، نحو: إنّهُ كان عبدا شكورا (الإسراء/3) تقرأ: إنّهُو كان عبدا شكورا، بمدّ بمقدار حركتين.

- **ألفات حيّ طهر:** الأحرف المشكلة لعبارة ⟵ (حيّ طهر) هي الأحرف الخمسة من فواتح السور، وهو مدّ طبيعي ليس بعده همز ولا سكون، ويمدّ بمقدار حركتين، وتقرأ على النحو التالي: (حا)، (يا)، (طا)، (ها)، (را).

2.1.1- المدّ الفرعي: هو ما زاد عن المدّ الأصلي بسبب اجتماع حرف المدّ بالهمز أو السكون.

- **المد بسبب الهمزة:** ويكون المد سببه الهمز لأن الصوائت حروف خفية، والهمزة حرف جَلِد بعيد المخرج صعب في اللفظ، فلما لاصقت حرفا خفيّا، خيف عليه أن يزداد -بملاصقة الهمزة له- خفاءً، فبيّن بالمدّ ليظهر، لأنه يخرج من مخرجه بمدّ فيُبيّن بما هو منه[13]، وهو على ضربين:[14]

أ- مدّ متّصل: هو أن يأتي حرف المدّ والهمزة بعده في كلمة واحدة، وسمي متصلا تبعا لذلك، نحو: (السَّمَآء)، (سوء) وغيرها.

ب – مدّ منفصل: هو أن يأتي حرف المدّ في آخر الكلمة والهمزة في أول الكلمة بعده، نحو: (قوا أنفسكم) و(على أبصارهم).

- **المدّ بسبب السكون:** سبب المدّ أنه يكون عوضا من الحركة، وذلك أن الممدود عند العرب تكون نظير المتحرّك في الطول، فصار المد في الفصل بين الساكنين كالحركة[15]، وهو على ضربين:[16]

أ- **المدّ بسبب السكون الأصلي:** هو أن يأتي بعد حرف المدّ حرف ساكن سكونا أصليا في كلمة واحدة وصلا ووقفا، ويمدّ بمقدار ست حركات، نحو: (الطّآمّة)، (ءآمّين)، (الصّآخّة).

ب- **المد بسبب السكون العارض:** هو أن يأتي بعد حرف المدّ حرف متحرك وصلا في كلمة واحدة، وحال الوقف يعرض له السكون، ويمدّ بمقدار حركتين، أو أربع، أو ست حركات، نحو: (العاذْ)، (نستعينْ)...

2.1- دراسة الزّمن مع النّطق بالصّوامت:

يعتبر عامل الزمن، أو الاستغراق الزمني للنطق بالصوت عاملا مهمّا، كونه العنصر الضامن لتحقيق المعنى الذي تحمله الأصوات، "فالكلام إنما يحدث في الزمن، والأصوات تتتابع لحظة بعد لحظة، كما تتابع التغيرات في صفاتها ومخارجها"[17]، ومعرفة زمن النطق بالصامت ليس من قبيل المعرفة الإلزامية للمتكلم، وإنما من قبيل تحقيق العملية الإدراكية لمعاني الأصوات، وهذا الزمن "قد أُشربه المستمع في لغته وعرف لكل صوت من أصواتها قالبه الزمني وقيمته، تلك القيمة الزمنية التي لا تكون ثابتة بالمعنى المطلق، وإنما تتأرجح في مجال يقع بين حد أدنى، وحد أقصى لزمن

الصوت"[18]، فإذا كانت تحت الحد الأدنى كان الصوت مشوشا في أذن السامع لا يدرك معانيه، وإذا كان فوق الحد الأقصى، كان مُستطالا مستثقلا على السامع وعلى هذا الأساس تعتبر معرفة الزمن الذي يحدّ الصامت في فضاء الكلام أمرا في غاية الأهمية.

الصّوامت "يقاس طولها بالمدى الزمني الذي يستغرقه عضوا النطق في إنتاج هذا الصامت"[19]، ويختلف استغراق الزمن أو طول النطق بالصوت وقصره حسب صفات الصوت المنطوق، وحسب هيأته في مخرجه، فالمعلوم عند علماء الأصوات أن الصوائت "هي أطول الأصوات نطقا في مجال الزمن، ثم يليها الأصوات الأنفية وهي النون والميم، فهما من أطول السواكن"[20] وذلك لارتباطها بالغنّة، التي هي عبارة عن خروج الصوت من الأنف أو الخيشوم باصطلاح علماء القراءات القرآنية، ولمّا كان خروجه من ذلك الموضع خافتا، كان الصوت أكثر طولا في النطق بالميم والنون، حفاظا على تحقّقها في النّطق، ثم تلي الأصوات الأنفية في الطول "الأصوات الجانبية كاللام، ثم المكررة كالراء ثم الأصوات الرخوة ذات الصفير أو الحفيف، وأقل الأصوات الساكنة طولا الأصوات الشديدة أو الانفجارية"[21] وعلى هذا الأساس يمكننا ترتيب الصوامت حسب الطول الزمني في النطق بها كما يلي:

- **أولا: الأصوات الأنفية:** النون، الميم.
- **ثانيا: الأصوات الجانبية:** اللام.
- **ثالثا: المكررة:** الراء.
- **رابعا: الأصوات الرخوة ذات الصفير أو الحفيف:** س، ص، ز، ف، ث، ذ، ش، خ، ح، غ، ع. ه ض، ظ
- **خامسا: الأصوات الشديدة:** ء، ج، د، ق، ط، ب، ك، ت.

الصّوامت إذا كانت مشدّدة تكون أطول في الزمن عند النطق بها؛ أي صوت مشدّد يعادل النطق بصوتين مفردين فإذا نطق المتكلم بصوت الميم -مثلا- مشدّدا (مَّ)، يعادل نطقه بصوت الميم مرتين (م م)، وعلى هذا الأساس دراسة استغراق الزمن بالنسبة للصوامت يكون من جانبين؛ جانب الإفراد وجانب التشديد.

لم يُعن المتقدّمون من علماء العربية، ولا سيما أولئك الذين بحثوا في علم الأصوات بدراسة استغراق الزمن مع الصوامت كما درسوه مع الصوائت، فقد فصلوا في دراسة الزمن مع هذه الأخيرة في إطار ما أسموه "المدّ"، وهذا راجع إلى اهتمامهم بالدراسات القرآنية، بينما دراسة زمن النطق بالصوامت لم يولوه اهتماما، إلا في بعض المواضع، مثل الحديث عن أحكام النون والميم الساكنتين، ولم يكن حديثهم عن هذين الصوتين لولا أنهما ارتبطا بما أسموه "الغنّة"، "فقد حاولوا أن يحولوا بين هذين الصوتين وفنائها فيما بعدهما من الأصوات، فأطالوا الميم حين يليها الباء، وحين تكون مشدّدة، كما أطالوا النون مع خمسة عشر صوتا، هي التي عرفت بالأصوات التي تخفى معها النون"[22]، أما التفصيل في الصوامت الأخرى من حيث استغراقها للزمن أثناء النطق بها لم يكن محلّ اهتمام، وهذا راجع إلى عدم وجود الدافع لدراستها كما هو موجود الآن، وخاصة مع توجه الدّراسة في العصر الحديث نحو المعالجة الآلية، كما أن تقنيات معالجة الصوت لم تكن متوفرة، والدليل أن دراستهم للمدود مع الصوائت كانت بطرق كلاسيكية هو حساب استغراق الصائت للزمن عن طريق ما أطلقوا عليه "الحركات"، وقد اخترع علماء التجويد طريقة لحساب المدود بالأصابع، هذه الآليات الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها على الصوامت باعتبار أن الصوامت تشكل الحيّز الأكبر من الكلام، ولكن مع تطور تقنيات المعالجة الآلية للصوت، أصبح ممكنا دراسة زمن استغراق الصوامت للزمن للنطق بها، وخاصة مع دخول الدراسة الحاسوبية لميدان اللغة، أصبحت هذه الدراسة مهمة لتكوين قاعدة بيانات خاصة بالأصوات العربية، من أجل تطوير تقنيات وأنظمة مثل التعرف الآلي على الصوت.

يتعلق استغراق الصوت لزمنه بالمتكلم، فعلى المتكلم أن يراعي الزمن اللازم لكل صوت، فالإخلال بمراعاة الحيّز الزمني الذي يشغله كل صوت ينتج عنه إخلال بالمعنى الذي تحمله تلك الأصوات؛ صوامت كانت أم صوائت "فأول ما يجب أن نلاحظه هو أن كمية كل صوت تتوقف على سرعة الالقاء، وأنه كلما ازدادت سرعة الكلام ازداد كل صوت في القصر، والعكس صحيح"[23]، ويقصد بالكمية الزمن الذي يستغرقه الصوت للنطق به.

تؤثر عدّة عوامل في المدى الزمني للأصوات، حيث أن هناك عوامل لسانية مثل التّبر والتنغيم والإيقاع وسرعة التلفظ، وهناك عوامل غير لسانية تتمثل في موضع الصوت ضمن التركيب الصوتي أو السلسلة الصوتية، وكذلك وجوده ضمن السياق الصوتي، كما أن لكل صوت لغوي مدى زمنيا محايثا، حيث أن الحركات المرتفعة أقصر من تلك المنخفضة، والحركات الخلفية أقصر من الحركات الأمامية، والحروف الإنحباسيّة أقصر من الحروف الاحتكاكية والحروف المجهورة أقصر من المهموسة.[24]

2- تحقيق الخِفّة في تركيب الأصوات اللغوية العربيّة:

بعد دراسة الأصوات العربية في بُعد الزمن، لابد من دراسة ديناميتها في هذا الفضاء الزماني، والقصد من الدينامية[25]؛ الحركية التي يكتسبها اللفظ في درج الكلام المرتكزة أساسا على الخفّة والتسهيل في مقابل الثقل والعسر في النطق بالأصوات العربية، باعتبار أن النطق حركة (فعل) تحدث في مكان (مخارج الأصوات) ومتعلقة بتسلسل زمني؛ أي تعاقب للوحدات الصوتية، ونتيجة هذا التعاقب قد تكتسب الأصوات ثِقلا في النطق بسبب السابق واللاحق المتصل بها، فتنتج عن هذا ظواهر صوتية لتذليل الثّقل واكساب الصوت سهولة وخفة، وقد تناول علماء اللغة خفة وثقل الأصوات العربية، وكلٌّ منهم نظر إليها من خلفيته، فالمهتمون بالصّوت نظروا إليها نظرة صوتية والصرفيّون نظرة صرفية، والبلاغيون نظرة بلاغية، غير أن كلّهم وصلوا إلى نتيجة واحدة مدارها أن العربية لغة تميل إلى الخفّة والتظافر وتمجّ الاستثقال والتنافر، وعلى هذا الأساس كان مقياس الفصاحة ومعيار البلاغة.

ظاهرة الخفة والثقل نظر إليها علماء اللغة في إطار النطق بالأصوات، وبالضبط في حركة أعضاء جهاز النطق "فالانتقال من رفعة اللسان في الأعلى إلى النصبة المسطحة يسير، والأيسر منه الانخفاض به إلى الخفضة، كما أن الانكسار من النصبة على الخفضة سهل وأمكن في النطق، وبالمقابل من هذا، فإن الانتقال من الخفض إلى النصب عسير والأعسر منه التحرك من الكسر إلى الرفع، والعسر واليسر هنا بمفهوم الثقل والخفة"[26]، وهذا مثال على تصور علماء اللغة للخفة والثقل في الأصوات اللغوية العربية، ولم يقتصر معيار الخفة والثقل على النطق بالأصوات بل تعدّى ذلك إلى صفاتها، فما كان مجهورا يؤثر في المهموس -مثلا- نظرا لقوة المجهور وضعف المهموس، فالتفاعل بين الأصوات بكل ما تحمله من خصائص نطقية سواء ما تعلق بمخرجها أو صفاتها، يُولّد نوعا من التأثير والتأثر عَنِيَ بدراسته علماء اللغة، فرصدوا التغيرات واستنبطوا الأحكام، يقول سيبويه في هذا الصدد: "أنت لو رمت أن تأتي بكَسرة أو ضمة قبل الألف لن تستطع ذلك البتّة، وكذلك لو تكلفت الكسرة قبل الواو الساكنة المفردة، أو الضمة قبل الياء الساكنة المفردة لتجشمت فيه مشقّة وكلفة..."[27].

ومما درج عليه اللغويون بالبحث والدراسة دراسة التناسب والخفة في النطق بالأصوات اللغوية في التركيب أو التشكيل الصوتي؛ أي دراسة التفاعل الحاصل بين الأصوات في التركيب، ونشأ عن هذا ظواهر تناولها الدارسون قديما وحديثا بالبحث، ولعلّ أبرز من درسها دراسة متأنية فاحصة علماء القراءات القرآنية، فنظروا إلى الصّوت في القرآن من حيث إظهاره وإخفاؤه، وإدغامه، وقلبه، وذلك بالنظر إلى وضعية الصوت في التركيب، كل هذا لتحصيل مبدأ الخفة تارة، وحفظ الصوت من التاهي في غيره من الأصوات تارة أخرى، وكذلك لتلاؤم الصوت وتناسبه مع غيره من الأصوات في التركيب الصوتي، ورفع الثقل عنه وتيسير النطق به.

وتُلتمس خفة الأصوات في التركيب بناءً على وضعية الصوت فيه، وكذلك بالنظر إلى خصائصه النطقية وخصائص الصوت المجاور له، سواء السابق أو اللاحق، وقد جعل علماء اللغة وخاصة علماء التجويد المعرفة بأحوال الأصوات في التركيب وما يطرأ عليها من تغييرات وتبديلات ضرورية للمتقن المُجيد، يقول ابن الجزري: "فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته موفّ حقه فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد"[28]، وما يطرأ على الأصوات من تغيير وتبديل في التركيب لا يكون إلا من أجل التماس تجانسها وتلاؤمها مع بعضها البعض، وتحقيقا لمبدأ خفتها في التشكيل الصوتي، ودرأ ثقلها وعسرها.

أَوْلى العلماء القدامى عناية بالغة بالأصوات في اللغة العربية، حيث درسوا الكلمة المفردة ووضعوا شروط فصاحتها وحسنها، وجعلوا من خفّة الصوت وسهولته في تظافره مع الأصوات الأخرى المشكلة للفظ قاعدة يبررون بها

تغيره عن أصله، كقول ابن جني مبررا تناسب الصوت (لَضَربٌ مِن تَجَانُسِ الصَّوت)، ويعبر عنها ابن يعيش بقوله (لَضَربٌ مِن التَّشَاكُل)[29]، وهذا لتحقيق مقصد الخفّة والتناسب بين الأصوات "فالكلام لا يكون بلاغة -وإن ثقفت ألفاظه كل التثقيف- إذا تنافرت حروفه، وتنافر الحروف أن تكون مخارجها متلاصقة كالجيم والشين، أو الصاد والسين والزاي"[30]، وقد عالج علماء العربية هذه الظاهرة علاج المتأني المَمحِّص للأصوات العربية في تآلفها وتفاعلها في اللفظ وجهود الخليل في هذا معتبرة حيث أشار إلى ضرورة الفصل بين بعض الأصوات، وأقرّ بعدم جواز تتابعها في اللفظ حفاظا على انسجام اللفظة وخفتها، ومثال ذلك الفصل بين العين والهاء، وجوّز اجتماعها إذا كانت العين قبل الهاء، نحو قوله تعالى: (كَالعِهْنِ المَنفُوشِ) (القارعة/5)، أما إذا كانت العين بعد الهاء فلا يكونان إلا منفصلين، كقوله تعالى: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ) (إبراهيم/ 43)، فُصِلَتا بوجود الطاء بينهما فامتنع اجتماعها، كما استعمل مصطلح (التأليف) في تعليله إبدال تاء الافتعال بقوله[31]: "وادخرت ادّخارا، وتاء الافتعال إذا جاءت بعد الذال تحولت على مخرج الدال فتدغم فيها الذال، وكذلك الادّكار من الذكر، ومنعهم أن يدعوا تاء (افتعل) على حالها استقباحهم لتأليف الذال مع التاء... لأن انتظامها من موضع واحد أيسر"[32]، وهذا نظرا لمخرج التاء وصفته باعتباره مهموسا، فتلاه صوت مجهور متمثل في الذال فتحول إلى صوت الدال كون صوت الذال أقوى من التاء، فأصل الكلام (اتذخار)، (اتذخرت)، فلما استقوى صوت الذال على التاء تحوّلت التاء دالا وادغمت في الذال فأصبحت (ادّخار) (ادّخرت)، وهذا راجع لضرورة صوتية طلبا للخفّة والسهولة في النطق، كما أن الخليل قد أشار إلى عدم اجتماع العين والحاء في كلمة لقرب مخرجيهما إلا إذا كانتا في كلمة منحوتة من كلمتين نحو: (حيعل) من (حيّ على)[33].

والتماس الخفّة والتناسب في اللفظ العربي، عملت عليه القبائل العربية، "فقد روي عن تميم وأسد أنهم كانوا ينطقون باطراد كلمات مثل: (بِعِير، شِهِيد، زِئِير) بكسر الحرف الأول، وليس هذا في الحقيقة إلا انسجام بين حركات هذه الكلمات"[34]، فما نطقت تميم وأسد الكلمات تلك على النحو الذي نطقت به إلا لالتماس تناسب الحركات، لأنها خفيفة في اللسان، سهلة في النطق، وقد ذكر الفراء (ت207ه) في معاني القرآن وهو يعقّب على قراءة (الحمدِ لِله) بكسر الدال في الحمد، فقال: "...هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد؛ فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمّة بعدها كسرة، أو كسرة بعدها ضمة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل إبِل، فكسروا الدال ليكون في المثال من أسمائهم"[35].

ومن الألفاظ الشاهدة على التماس العرب لخفة الألفاظ من خلال تباعد مخارج الأصوات المشكلة لها، ورود لفظ (الهعخع) على لسان أعربي سئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهعخع، وقد وصف علماء اللغة اللفظ بالمستثقل نتيجة تنافر أصواته لتقارب مخرجها، فكل من الهاء والخاء والعين أصوات حلقية، والنطق بها في سلسلة واحدة دون أن يفصل بينها صوت من مخرج آخر يجعلها ثقيلة في النطق، وإذا كان اللفظ ثقيلا على اللسان عسيرا في النطق جُعل ضمن المهمل، وقد صنف العلماء اللفظ من حيث تنافره إلى تنافر ثقيل كلفظ (الهعخع)، وتنافر خفيف أقل حدّة من سابقه، فهو يحمل ثقلا في النطق وثقلا على أذن السامع، ومثاله قول امرئ القيس: غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا ..... تَضِلّ المَدَارَى فِي مَثَنَّى وَمرسلِ، الشاهد قول الشاعر (مستشزرات) إذ ردّوا الثقل فيها إلى توسط الشين التاء والزاي ويرى الدسوقي (1230ه) أن سبب الثقل فيها راجع إلى توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء المهموسة الشديدة فاختلفتا -أي الشين والتاء- في الشدة والرخاوة، وبين الشين والزاي في الجهر والهمس، فجاء الثقل من هذا الاختلاف[36]، وعليه يستثقل اللفظ في العربية من جانبين؛ جانب المخرج حيث تلتمس الخفة كلما كانت أصوات اللفظ متباعدة في مخارجها وكلما كانت متقاربة المخرج كانت ثقيلة في النطق، مستثقلة على السمع، وجانب آخر يتعلق بصفة الأصوات المشكلة للفظ، وذلك بأن يؤثر صوت في صوت آخر نتيجة قوته؛ فالمجهور يستقوى على المهموس، والشديد على الرخو وتلتمس الخفة في الألفاظ العربية من خلال تغيير حركة صامت ليتبع الذي قبله طلبا للخفة والسهولة في النطق.

كما عملت بعض القراءات القرآنية على التماس خفّة اللفظ في مدرج الكلام، وخاصة ما تعلق بالهمز، ومن الظواهر المصاحبة لتحقيق التخفيف وتسهيل النطق باللفظ، ما ورد في قراءة ورش عن نافع من ظواهر تتمثل في:[37]

1.2 - التّسهيل: يقصد به نطق الهمزة بينها وبين حرف المد المجانس لحركتها، ففي الهمزة المفتوحة يكون النطق بينها وبين الألف، نحو قوله تعالى: (ءَا.مَنتُمْ لَهُ ُ قَبْلَ أَن اذَنَ لَكُم) (طه/ 70)، وفي المكسور يكون بينها وبين الياء، نحو قوله تعالى: (أَ.ذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) (مريم/ 66)، تقرأ (أَيِذَا مَا مِتُّ)، وفيا المضمومة بينها وبين الواو، نحو قوله تعالى: (أَ.لْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِر) (القمر/ 25)، تقرأ: (أَوُلْقِيَ).

2.2 - الاسقاط: ويقصد به حذف الهمزة وحركتها، نحو كلمة (وَالصَّابِئِينَ)، تسقط الهمزة فتقرأ: (وَالصَّابِينَ). وهذا التماسا للتخفيف والليونة في النطق.

3.2 - الابدال: تبدل الهمزة من جنس الحركة التي قبلها؛ أي تبدل ألفا بعد الفتح، واوا ساكنة بعد الضم، وياءً ساكنة بعد الكسر، مثل الكلمات التالية: (يَأْلُونَ- يَالُونَ)، (يُؤْمِنُوا- يُومِنُوا)، (الذِي اؤْتُمِنَ- الذِي أُوتُمِنَ).

4.2- الادغام: يقصد به اللفظ بحرفين حرفا مشددا كالثاني، يرتفع اللسان عند النطق بهما ارتفاعا، وينقسم الإدغام إلى قسمين: إدغام كبير، وإدغام صغير، فأما الإدغام الكبير فهو إدغام حرف متحرك في حرف متحرك بعد تسكين الحرف الأول، حث يصيران حرفا واحدا مشددا، نحو: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّين) (الفاتحة/ 3/2)، تقرأ: (الرّحيمّلك)، وهذه قراءة مروية عن السوسي عن أبي عمرو البصري بشروط، أما ورش فقرأ بعض الكلمات بهذا الإدغام نحو: (تَامَنَّا)، أصلها (تَأمَنُنَا). أما الإدغام الصغير فيقصد به التقاء حرف ساكن بآخر متحرك، بحيث يصيران حرفا واحدا مشددا نحو: (لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِد) (البقرة/ 60)، تقرأ: (لنّصبر).

يكون الإدغام من مظاهر خفّة النطق وانسجامه وسهولته على اللسان وذلك لأسباب متعلقة بخصائص الأصوات المتفاعلة في التركيب أو التشكيل الصوتي، حيث تكسب سمات تجمعها كالتجانس والتماثل والتقارب فالصوتان إذا تفاعلا وتداخلا إما أن يكونا متماثلين أو متجانسين، أو متقاربين، فالتماثل بين صوتين أن يكونا متفقين مخرجا وصفة أما التجانس بين صوتين فهو أن يكونا متفقين مخرجا مختلفين صفة، وأما التقارب بين صوتين أن يكونا متقاربين في المخرج أو الصفة[38].

- التّماثل ⟵ نحو قوله تعالى: (فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) (البقرة/ 59)، الشاهد: (اضرب بِّعصاك).
- التّجانس ⟵ نحو قوله تعالى: (وَلَن يَّنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ُ أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) (الزخرف/ 38). الشاهد: (إذ ظّلمتم)، ونحو قوله تعالى: (فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا) (الأعراف/189) الشاهد: (أَثْقَلَت دَّعَوَا)، ونحو قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) (الأحزاب/ 13)، الشاهد: (قَالَت طَّائِفَةٌ).
- التّقارب ⟵ نحو قوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه/111)، الشاهد: (وَقُل رَّبِّ) تقرأ: (وَقُرَّبِّ)، وقوله تعالى: (قَالَ لَقَد ظَّلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِه) (ص/ 23)، الشاهد: (لَقَد ظَّلَمَكَ)، تقرأ: (لَقَظَّلَمَكَ).

تعتمد خفة الأصوات اللغوية على تباعد مخارجها، فكلما كانت أصوات الكلمة أو الكلام بصفة عامة متباعدة مخرجا في سلسلة الكلام كانت خفيفة سهلة في النطق، فالتناوب بين مخارج الأصوات في مدرج الكلام يعطي النطق سهولة ويسر، وبما أن العرب تميل إلى التخفيف وتمجّ الاستثقال سهّلت نطق بعض الأصوات العربية كالهمز مثلا، وأدغمت أخرى، وذلك لتماثلها أو تجانسها أو تقاربها، فما كان مماثلا في المخرج، مشابها في الصفة خففته العرب بالإدغام، وما استعصى عن قواعد العربية وقوانين نطقها جعلته العرب في خانة المستوحش المستثقل المهمل.

- خاتمة:

يعتمد نظام الأصوات اللغوية العربية على أساسيات درج عليها الكلام العربي عند أربابه، حيث يعتبر تحقيق الخفة والسهولة في نطق الأصوات العربية عاملا مهما وقاعدة لها الأولوية في مقابل كل قواعد صياغة الكلام العربي، فإذا اقترنت قاعدة مع ثقل وعسر في النطق، جعل العرب تحقيق الخفة والسهولة في الألفاظ أولى من تحقيق قاعدة أيا كانت نحوية أو صرفية أو غيرها، كما أن انتظام الأصوات في درج الكلام باحترام المسافة الزمنية بين الأصوات جُعل من مظاهر الفصاحة، ودلالات البلاغة والبراعة في القول، وعلى هذا الأساس بني نظام الإيقاع في الشعر العربي.

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى النتائج التالية:

- يعتبر احترام زمن النطق بكل صوت في سلسلة الأصوات المشكلة للكلام العربي عاملا مهما في تحقيق سلامة الألفاظ وبلوغ المعنى.
- يعتمد نظام الأصوات العربية على تحقيق الخفة واليسر في النطق بالأصوات في مقابل الثِقل والعسر.
- يتجلى عامل الزمن في الصوائت تجليا واضحا في مقابل الصوامت.
- نشأ عن سعي الأصوات العربية إلى تحقيق الخفة واحترام إشباع الأصوات في درج الكلام ظواهر تميّز نظام الأصوات العربي.

كما نقترح ما يلي:

- ضرورة الاهتمام بخصائص الأصوات العربية ودراستها دراسة علمية مخبرية.
- دراسة الصّوت العربي من خلال عرضه على التقنيات التكنولوجية الحديثة، وتشكيل قاعدة بيانات تساعد في إدراجه ضمن تقنيات الذكاء الاصطناعي.
- وضع البيانات العلمية الدقيقة من أجل حفظ الأصوات العربية من التغيير والتداخل، وخاصة مع توفر آليات المعالجة الآلية.

- الإحالات:

1 - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، دط، ص 80.
2 - ينظر: الأصوات اللغوية، المرجع نفسه، ص 80.
3 - المقطع الصوتي بين الكمية والمدة الزمنية دراسة أكوستيكية تطبيقية، يحي علي يحي مباركي، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: تمّام حسان عمر، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1993م، ص 50.
4 - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص 80.
5 - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مرجع نفسه، ص 80.
6 - ينظر: المقطع الصوتي بين الكمية والمدة الزمنية دراسة أكوستيكية تطبيقية،يحي علي يحي مباركي، مرجع سابق، ص 55.
7 - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة قرطبة، ط1، 2005م، ص 65.
8 – ينظر: أنوار المطالع في أصول رواية ورش عن نافع، الزهرة بلعالية دومة، دار الإمام مالك، ط2، الجزائر، 2013م، ص 88.
9 – ينظر: الصوائت في القرآن الكريم دراسة معملية، عبد الرزاق سعود غيث، رسالة لنيل درجة الماجيستير، إشراف: محمد محمد إمام داوود، مصطفى محمد عبيد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قناة السويس، 2017م، ص 60.
10 - ينظر: أنوار المطالع، الزهرة بلعالية دومة، مرجع سابق، ص89.
11- ينظر: المقطع الصوتي بين الكمية والمدة الزمنية دراسة أكوستيكية تطبيقية، مرجع سابق، ص 57.
12 - ينظر: أنوار المطالع، الزهرة بلعالية دومة، مرجع سابق، ص 89، 90، 91.
13- الصوائت في القرآن الكريم دراسة معملية، عبد الرزاق سعود غيث، مرجع سابق، ص 86.
14 - ينظر: أنوار المطالع، الزهرة بلعالية دومة، مرجع سابق، ص 92.
15 – ينظر: الصوائت في القرآن الكريم، عبد الرزاق سعود غيث، مرجع سابق، ص 88، 89.
16 - ينظر: أنوار المطالع، الزهرة بلعالية دومة، مرجع سابق، ص 97، 100، 101.
17 - الاستغراق الزمني للأصوات وأثره في تشكيل اللغة وإدراكها، فايدة عبد العزيز، مجلة هرمس، المجلد 6، العدد 1، يناير 2017، جامعة القاهرة، ص 205.
18- الاستغراق الزمني للأصوات وأثره في تشكيل اللغة وإدراكها، فايدة عبد العزيز، مرجع نفسه، ص 206.
19 - الاستغراق الزمني للأصوات، مرجع نفسه، ص 207.
20 - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص 81.
21 - الأصوات اللغوية، مرجع نفسه، ص 81.
22 - الأصوات اللغوية، مرجع نفسه ص 82.
23 - الصوائت في القرآن الكريم، عبد الرزاق سعود غيث، مرجع سابق، ص 85.
24 - مظاهر النغمية في العربية الفصحى خصائصها ومعالجتها، نادرة بنسلامة، الدار المتوسطية للنشر، ط1، 2016م، ص 37.
25 – ينظر: لفظ الدينامية وظّفه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في سياق حديثه عن الحركة والسكون عند الصوتيين العرب في كتابه "بحوث ودراسات في اللسانيات العربية.

26 - مفهوم الخفة والثقل في المدونة الصوتية العربية، إبراهيم بوداود، مجلة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية، العدد 9، جوان 2019م، ص 117.
27 - مفهوم الخفة والثقل في المدونة الصوتية العربية، مرجع نفسه، ص 117.
28 - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر، ط2، عمان، 2007م، ص 331.
29 - ينظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، القاهرة، 2003م، ص 88.
30 - جماليات التلاؤم والتنافر بين البلاغيين واللغويين مقاربة تحليلية، أسامة عبد العزيز جاب الله، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، موقع: https://www.diwanalarab.com ، السبت 26أفريل 2008م، الساعة: 13: 18.
31 - ينظر: ماهية الانسجام الصوتي بين القدماء والمحدثين، أ.م.د. علي عواد ميزر، مجلة العلامة، المجلد 7، العدد 1، 2022م، ص 245.
32 - ماهية الانسجام الصوتي بين القدماء والمحدثين، مرجع نفسه، عن كتاب العين للخليل، مادة (ذخر): 243/4.
33 - ينظر: ماهية الانسجام الصوتي بين القدماء والمحدثين، مرجع نفسه، ص 249.
34 - في اللهجات العربية، مرجع سابق، ص 87.
35- معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفرّاء، دار الكتب المصرية، تح: أحمد يوسف، محمد على النجار، ط1، ج1، 1955م، ص 3.
36 - ينظر: جماليات التلاؤم والتنافر بين البلاغين واللغويين، مرجع سابق.
37 - ينظر: أنوار المطالع، مرجع سابق، ص 107،65، 108.
38 - ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مرجع سابق، ص 336، 337.

- قائمة المصادر والمراجع:

1 – القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
2 - أنوار المطالع في أصول رواية ورش عن نافع، الزهرة بلعالية دومة، دار الإمام مالك، ط2، الجزائر، 2013م.
3 - الاستغراق الزمني للأصوات وأثره في تشكيل اللغة وإدراكها، فايدة عبد العزيز، مجلة هرمس، المجلد 6، العدد 1، يناير 2017، جامعة القاهرة.
4- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، دط.
5 - جماليات التلاؤم والتنافر بين البلاغيين واللغويين مقاربة تحليلية، أسامة عبد العزيز جاب الله، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، موقع: https://www.diwanalarab.com ، السبت 26أفريل 2008م، الساعة: 13: 18.
6 - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر، ط2، عمان، 2007م.
7 - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة قرطبة، ط1، 2005م.
8 - الصوائت في القرآن الكريم دراسة معملية، عبد الرزاق سعود غيث، رسالة لنيل درجة الماجيستير، إشراف: محمد محمد إمام داوود، مصطفى محمد عبيد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قناة السويس، 2017م.
9- في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، القاهرة، 2003م.
10- ماهية الانسجام الصوتي بين القدماء والمحدثين، أ.م.د. علي عواد ميزر، مجلة العلامة، المجلد 7، العدد 1، 2022م.
11- معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفرّاء، دار الكتب المصرية، تح: أحمد يوسف، محمد على النجار، ط1، ج1، 1955م.
12- مظاهر النغمية في العربية الفصحى خصائصها ومعالجتها، نادرة بنسلامة، الدار المتوسطية للنشر، ط1، 2016م.
13- مفهوم الخفة والثقل في المدونة الصوتية العربية، إبراهيم بوداود، مجلة تنوير للدراسات الأدبية والإنسانية، العدد 9، جوان 2019م.
14- المقطع الصوتي بين الكمية والمدة الزمنية دراسة أكوستيكية تطبيقية، يحي علي يحي مباركي، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: تمّام حسان عمر، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1993م.